

الفصل الثالث

سلطنة الملك المظفر سيف الدين قطز المعزي

السلطان الملك المظفر سيف الدين قطز⁽¹⁾ بن عبد الله المعزي نسبة إلى أستاذه المعز أيلك، هو الثالث من ملوك الترك بالديار المصرية، تسلطن بعد خلع ابن استاذة الملك المنصور على ابن المعز أيلك في يوم السبت 27 ذي القعدة 657هـ / 15 أكتوبر 1259م، وذلك بعد أن عظمت الأراجيف بتحريك التتار نحو البلاد الشامية⁽²⁾.

اتفق الحاضرون في مجلس خلع الملك المنصور على تولية قطز السلطنة في نفس الساعة وأجلسوه على سرير الملك ولقبوه بالمظفر، لأنه كان كبير الأمراء المعزية والمتصرف الحقيقي في الأمور، وهو معروف بالشجاعة والفروسية، ورضى به الأمراء الكبراء وخوشداشيته⁽³⁾، ويعلق ابن تعزي بردي على ذلك بقوله: "والملك المظفر قطز هو أول مملوك خلع ابن استاذة من الملك وتسلطن عوضه، ولم يقع ذلك قبله من أحد من الملوك، وتمت هذه السُّنة السيئة في حاصد إلى يوم القيامة، وبهذه الواقعة فسدت أحوال مصر⁽⁴⁾".

وكان بعض الأمراء الكبار قد خرجوا للصيد بالبندق، ولما قدموا إلى قلعة الجبل وعرفوا ما جرى أنكروا على قطز ما فعله من انقلاب على الملك المنصور وتسلطن مكانه، فخافهم واعتذر إليهم بحركة التتار إلى جهة الشام ومصر، فسكتوا على مضض، ثم أعجلهم عن التدبير وقبض عليهم واعتقلهم وهم: الأمير علم الدين سنجر الغنمي، والأمير شرف الدين قيزان المعزي، وعز الدين أيلك النجيب الصغير، وشمس الدين قرا سنقر المعزي، واعتقل أيضًا شمس الدين الدود خال الملك المنصور بن المعز، والطواشي حسام الدين بلال المغيثي اللالا⁽⁵⁾.

واستحلف الأمراء والعساكر وأظهر العزم، وفي خامس ذي الحجة 657هـ / 23 نوفمبر 1259م استوزر صاحب زين الدين بن عبد الرفيع بن يزيد بن الزبير، وصرف تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز، وعزل الأمير حسام الدين بن باذ عن وظيفة شاد

(1) معنى كلمة "قطز" هو "الكلب الشرس"، وهي مغولية أطلقها عليه من اختطفوه وباعوه، وربما كان تجار الرقيق هم الذين أعطوه هذا الاسم.

قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، مطبوعات الهيئة العامة لقصور الثقافة، العدد 24، ص 41.
(2) النويري، نهاية الأرب، ج 29، ص 469؛ المقرئ، السلوك، ج 1، ص 417؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 7، ص 72.

(3) بيارس الدوادار، زبدة الفكرة، ص 46.

(4) النجوم الزاهرة، ج 7، ص 56.

(5) نهاية الأرب، ج 29، ص 469؛ السلوك، ج 1، ص 418.

الدواوين⁽¹⁾ وولي الأمير نور الدين بن السيد، واستمر بالأمر فارس الدين أقطاي المستعرب على الأتابكية وفوض إليه أمر العساكر⁽²⁾.

وعمل قطز على تخدير الملك الناصر يوسف صاحب حلب ودمشق حتى لا يتنهب الفرصة ويتخذها ذريعة لأخذ مصر، فكتب إليه كتاباً يترفق فيه ويقسم بالأيان أن لا ينازعه في الملك ولا يقاومه وأنه نائب عنه بديار مصر ومتى حل بها أقعده على الكرسي، وقال فيه أيضاً: "وإن اخترتني خدمتك، وإن اخترت قدمت ومن معي من العسكر نجدة لك على القادم عليك، فإن كنت لا تأمن حضوري سيرت إليك العساكر صحبة من تختار" فلما قدم على الملك الناصر كتاب قطز أطمأن⁽³⁾.

أما عن أخبار المغول والتتار في أواخر هذه السنة فقد قدم هولاءكو إلى البلاد شرقي الفرات ونزل حران وملكها، واستولى على البلاد الجزرية، وأرسل ولده سموط إلى الشام فوصل إلى ظاهر حلب في العشر الأخير من هذه السنة (657هـ) وكان الحاكم في حلب الملك المعظم توران شاه بن السلطان صلاح الدين نائباً عن ابن أخيه الملك الناصر يوسف، فخرج عسكر حلب لقتالهم وخرج الملك المعظم ولم يكن من رأيه الخروج إليهم، وأكمن لهم التتر في باب إلى المعروف بباب الله وتقاتلوا عند بانقوسا، فاندفع التتر قدامهم حتى خرجوا عن البلد، ثم عادوا عليهم فهرب الحلبيون طالبين المدينة والتتر يقتلون فيهم حتى دخلوا البلد وقد مات منهم البعض دهساً في أبواب البلد، ثم رحل التتر إلى إعزاز فتسلموها الأمان⁽⁴⁾.

حوادث وأخبار سنة 658هـ / 1260م

لما بلغ الملك الناصر يوسف صاحب الشام قصد التتر حلب برز من دمشق إلى برزة بالغوطة شمال دمشق وخيم عليها وقد ساده الاضطراب، وكان هذا في أواخر السنة الماضية، وجفل الناس من بين يدي التتر، وسار من حماة إلى دمشق الملك المنصور صاحب حماة ونزل

(1) شد الدواوين وظيفة موضوعها أن يكون صاحبها رفيقاً للوزير متحدثاً من استخلاص الأموال وما في معنى ذلك، وعادتها إمرة عشرة.

القلقشندي، صبح الأعشى، ج 4، ص 22؛ حسن الباشا، الفنون الإسلامية، ج 2، ص 611-613.

(2) النويري، نهاية الأرب، ج 29، ص 469؛ المقرئ، السلوك، ج 1، ص 417-418.

(3) السلوك، ج 1، ص 418.

(4) أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، ج 3، ص 239-240.

معه ببرزة⁽¹⁾، وكتب الناصر إلى الملك المغيث صاحب الكرك وإلى الملك المظفر قطز يطلب منها نجدة⁽²⁾.

ومع هذا فكانت نفس الناصر قد ضعفت وخارت وعظم خوف الأمراء والعساكر من هولأكو، فأخذ الأمير زين الدين الحافظي يعظم شأن هولأكو ويشير بأن لا يقاتل وأن يداري بالدخول في طاعته، فصاح به الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري وضربه وسبه وقال: "أنتم سبب هلاك المسلمين" وفارقه إلى خيمته، فمضى الزين الحافظي إلى الملك الناصر وشكا إليه ما كان من الأمير بيبرس، فلما كان الليل هجم طائفة من المماليك على الملك الناصر ليقتلوه ويملكوا غيره وكان في بستان، ففر هو وأخوه الملك الظاهر إلى قلعة دمشق، فبادر الأمراء القيمرية والأمير جمال الدين بن يغمور والأكابر إلى القلعة وأشاروا على الناصر أن يخرج إلى المخيم فخرج⁽³⁾.

لما رأى الأمير بيبرس ومن معه من الأمراء البحرية ضعف وخذلان الملك الناصر عن ملاقة العدو توجهوا إلى غزة واجتمعوا هم والأمراء الشهرزورية وكبيرهم الأمير نور الدين بدلان وأرسل بيبرس الأمير علاء الدين طبرس الوزيري إلى السلطان الملك المظفر قطز يستأذنه في الحضور إلى خدمته -هو ومن معه- ويلتمس أيما له لهم، فأجاب الملك المظفر إلى ما طلب، فتوجه من غزة بمن معه، وكان وصولهم إلى القاهرة في يوم السبت 22 ربيع الأول 658هـ / 7 مارس 1260م، فركب الملك المظفر للقائهم، وأنزل بيبرس بدار الوزارة وأقطعهم قلوب وأعمالها لخاصه، فأشار عليه بحرب التتار وقوى عزمه على ذلك⁽⁴⁾.

ونعود إلى أخبار التتار فبعد اسقاطهم للخلافة في بغداد تدفقت قواتهم من أذربيجان وكردستان على الجزيرة، واستولى هولأكو على آمد ونصيبين وحران والرها والبيرة، ومن هناك اتجهت صوب حلب⁽⁵⁾، وقد رفض نائبها الملك المعظم توران شاه بن صلاح الدين الاستسلام لهم، فاقتحموا المدينة يوم الأحد 9 صفر 658هـ / 25 يناير 1260م واستولوا

(1) أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، ج 3، ص 240.

(2) المقرئزي، السلوك، ج 1، ص 419.

(3) المقرئزي، السلوك، ج 1، ص 419.

(4) النويري، نهاية الأرب، ج 29، ص 471؛ المقرئزي، السلوك، ج 1، ص 419-420؛ أبو الفدا، المختصر، ج 3، ص 240؛ ابن أيبك، كثر الدرر، ج 8، ص 49.

(5) سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكي، ص 30.

عليها عنوة ليعملوا في أهلها قتلاً وأسراً⁽¹⁾، ثم حاصروا قلعة حلب ثم سلمت بالأمان بعد شهر في يوم الاثنين 9 ربيع الأول / 25 فبراير⁽²⁾.

وسرعان ما انتشرت أخبار ما فعله التتار بحلب في بقية أنحاء الشام، فأسرع ملوك الأيوبيين إلى الدخول في طاعة هولاكو، في حين فر الناصر يوسف من دمشق إلى غزة وترك دمشق تلقى مصيرها على أيدي التتار⁽³⁾، وكان الملك المنصور صاحب حماه قد فر منها والتجأ إلى الناصر يوسف وصحبه في فراره إلى غزة، فقرر كبراء حماة تسليم البلد لهولاكو فذهبوا إليه ومعهم مفاتيح حماة وطلبوا منه الأمان لأهل حماة وشحنة يكون عندهم فأمنهم⁽⁴⁾، أما عن دمشق فقرر أهلها التسليم لهولاكو، وكان رسل التتار بقرية حرسا فأدخلوا دمشق ليلة الاثنين سابع عشر صفر، وقرئ بعد صلاة الظهر فرمان جاء من عند هولاكو ملك التتار يتضمن الأمان لأهل دمشق وما حولها، وشرع الأكابر في تدبير أمرهم، ثم وصلت التتار إلى دمشق في سابع ربيع الأول / 4 مارس 1260م، فلقبهم أعيان البلد أحسن ملتقى وقرئ ما معهم من الفرمان المتضمن الأمان⁽⁵⁾.

أما الملك الناصر صاحب الشام فواصل مسيره من غزة إلى مصر فنزل بالعريش ثم قطيا بعد أن تفرق عسكره عنه وتوجه معظم عسكره إلى مصر قبله مع الأثقال، فلما وصل الناصر إلى قطيا عاد منها إلى جهة الشام لشيء بلغه عن الملك المظفر صاحب مصر، ونزل بوادي موسى ثم نزل بركة زيزاء بالبلقاء، فكبسه التتار بها وهو في خواصه وقليل من مماليكه، فاستأمن الناصر من التتار وتوجه إليهم، فلما وصل إليهم احتفظوا به وبقي معهم في ذل وهوان إلى أن قتل⁽⁶⁾.

معركة عين جالوت

كان الملك المظفر قطز سلطان مصر يتهيأ للقاء التتار، فلما اجتمعت العساكر الإسلامية بالديار المصرية ألقى الله تعالى في قلب قطز الخروج لقتالهم بعد أن كانت القلوب قد أيست

(1) أبو الفداء، المختصر، ج 3، ص 240-241.

(2) المختصر، ج 3، ص 242.

(3) العصر المماليكي، ص 242.

(4) المختصر، ج 3، ص 241.

(5) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 7، ص 76.

(6) النجوم الزاهرة، ج 7، ص 77.

من النصرة على التتار، وأجمعوا على حفظ مصر لا غير لكثرة عددهم واستيلائهم على معظم بلاد المسلمين، وأنهم ما قصدوا إقليماً إلا فتحوه ولا عسكرياً إلا هزموه، ولم يبق خارج عن حكمهم في الجانب الشرقي إلا الديار المصرية والحجاز واليمن، وهرب جماعة من المغاربة الذين كانوا بمصر إلى الغرب، وهرب جماعة إلى اليمن والحجاز، والباقي بقوا في وجل عظيم وخوف شديد يتوقعون دخول العدو وأخذ البلاد⁽¹⁾.

وعمل هولاكو -كعادته- على تحطيم الروح المعنوية لحكام وأهل البلاد التي يفتحها هو أو قادة جيوشه تبعاً، وأخيراً جاء الدور على مصر، فوصلت رسله برسالة تخويف وبث الرعب لينهزم ملكها وجيشها وشعبها معنوياً فيستسلمون، ونص هذه الرسالة البليغة التي أرسلها كتبها بالتأكيد أحد أدباء العرب في بلاطه هي ما يلي:

"من ملك الملوك شرقاً وغرباً القان الأعظم. باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء. يعلم الملك المظفر قطز الذي هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الإقليم يتنعمون بأنعامه ويقتلون من كان بسلطانه. يعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال إنا نحن جند الله في أرضه، خلقنا وسلطاناً على من حل به غضبه، فلکم بجميع البلاد معتبر، وعن عزمنا مزدجر، فاتعظوا بغيركم وأسلموا إلينا أمركم قبل أن ينكشف الغطاء، فتندموا ويعود عليكم الخطأ، فنحن ما نرحم من بكى، ولا نرق لمن شكى، وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد، وطهرنا الأرض من الفساد، وقتلنا معظم العباد، فعليكم بالهرب، وعلينا بالطلب، فأى أرض تأويكم؟، وأى طريق تنجيكم؟، وأى بلاد تحميكم؟، ما لكم من سيوفنا خلاص، ولا من مهابتنا مناص، فخيولنا سوابق، وسامنا خوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال، فالحصون لدينا لا تمنع، والعساكر لقتالنا لا تنفع، ودعاؤكم علينا لا يسمع، فإنكم أكلتم الحرام، ولا تعقون عند الكلام، وختتم العهود والأيمان، وفشا فيكم العقوق والعصيان، فأبشروا بالمذلة والهوان، ﴿فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون﴾ وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ﴿

(1) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 7، ص 77-78.

فمن طلب حربنا ندم، ومن قصد أماننا سلم، فإن أنتم لشرطنا ولأمرنا أطعتم، فلكم ما لنا وعليكم ما علينا، وإن خالفتم هلكتم، فلا تهلكوا نفوسكم بأيديكم، فقد حذر من أنذر، وقد ثبت عندكم أن نحن الكفرة، وقد ثبت عندنا أنكم الفجرة، وقد سلطنا عليكم من له الأمور المقدرة، والأحكام المدبرة، فكثيركم عندنا قليل، وعزيزكم عندنا ذليل، وبغير الأهنة ما لملوككم عندنا سبيل.

فلا تطيلوا الخطاب، وأسرعوا برد الجواب، قبل أن تضرم الحرب نارها، وترمي نحوكم شرارها، فلا تجدون منا جاهًا ولا عزًا، ولا كافيًا ولا حرزًا، وتدهنون منا بأعظم داهية، وتصبح بلادكم منكم خالية، فقد أنصفناكم إذ راسلناكم، وأيقظناكم إذ حذرناكم، فما بقي لنا مقصد سواكم، والسلام علينا وعليكم، ولمن أطاع الهدى، وخشي عواقب الردى، وأطاع الملك الأعلى.

ألا قل لمصرها هلاون قد أتى بحد سيوف تُنتضى وبواتر
يصير أعز القوم منا أذلة ويلحق أطفالاً لهم بالأكابر⁽¹⁾

فجمع قطز الأمراء واتفقوا على قتل الرسل والمسير إلى الصالحية، فقبض على الرسل واعتقلوا، وشرع في تحليف من تخيره من الأمراء وأمر بالمسير والأمراء غير راضين بالخروج كراهة في لقاء التتر⁽²⁾ نظرًا لما رسخ في أذهانهم من الخوف والرعب لنجاح الحرب الدعائية التي بثها التتار في البلاد كلها، وفوض قطز الأتابك فارس الدين أقطاي المستعرب في نيابة السلطنة وإدارة البلاد في غيابه⁽³⁾.

فلما كان يوم الاثنين 15 شعبان 658هـ / 27 يوليو 1260م خرج الملك المظفر قطز بجميع عساكر مصر ومن انضم إليه من عساكر الشام ومن العرب والتركمان وغيرهم من قلعة الجبل يريد الصالحية⁽⁴⁾، وكان يصحب قطز من الملوك الأيوبيين الملك المنصور محمد صاحب حماة وأخوه الملك الأفضل علي⁽⁵⁾.

(1) ابن أبيك الدواداري، كنز الدرر، ج 8، ص 47-48؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج 8، ص 63-64؛ المقرئ، السلوك، ج 1، ص 427-429.

(2) السلوك، ج 1، ص 429.

(3) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 7، ص 78.

(4) ابن أبيك، كنز الدرر، ج 8، ص 49؛ المقرئ، السلوك، ج 1، ص 429.

(5) أبو الفداء، المختصر، ج 7، ص 245.

كما راسل المظفر قطز الملك الأشرف مظفر الدين موسى صاحب حمص - وكان قد عاد من جهة هولاكو من حلب - وفوض إليه نيابة الشام أجمع وحلب وغير ذلك، كما راسل الملك السعيد بن الملك العزيز عثمان بن الملك العادل - وكان قد أخذ من هولاكو فرماناً بالصبيبة وبانياس وهما قلعتان تقعان بالقرب من دمشق، وسألها الملك المظفر قطز في رسالتيه إليهما المظافرة والمعاونة على حرب العدو وأن تكون الكلمة واحدة⁽¹⁾.

فتوجه رسوله، واجتمع بالملك السعيد فسبه وسب من أرسله وقال: من هو الذي يوافق هذا الصبي أو يدخل في طاعته أو ينضم إليه؟! ونحو هذا من الكلام. ففارقه وتوجه إلى الملك الأشرف، فخلا الأشرف بالرسول وقبّل الأرض بين يديه تعظيماً لمرسله وأجلسه مكانه على مرتبته وجلس بين يديه وسمع رسالته وقال له: قبّل الأرض بين يدي مولانا السلطان الملك المظفر وأبلغه عنى أنني في طاعته وموافقته وامتنال أمره، والحمد لله الذي أقامه لنصرة هذا الدين، ووعد أنه إن حضر المصاف (المعركة) مع التتار انهزم بهم، إلى غير ذلك، وأعطى الرسول ذهباً جيداً واعتذر إليه، فعاد الرسول وأبلغ الملك المظفر عن كل من الملكين ما قاله له فعامل كلا منهما عند ظفّره بما نذكره⁽²⁾.

وفي يوم خروج قطز بالجيش أحضر رسل التتار وكانوا أربعة⁽³⁾: فوسط واحداً بسوق الخيل تحت قلعة الجبل، ووسط آخر بظاهر باب زويلة، ووسط الثالث ظاهر باب النصر، ووسط الرابع بالريدانية، وطاقوا برؤوسهم في أسواق وشوارع القاهرة، ثم علقت على باب زويلة، وهذه الرؤوس أول رؤوس علقت على باب زويلة من التتار، وأبقى المظفر قطز على صبي من الرسل وجعله من جملة مماليكه⁽⁴⁾.

ونودي في القاهرة ومصر والفسطاط وسائر إقليم مصر بالخروج إلى الجهاد في سبيل الله ونصرة لدين رسول الله ﷺ، وأمر سائر الولاة بإخراج الأجناد للجهاد بسرعة وعقاب من تقاعس منهم، وسار حتى نزل بالصالحية وتكامل عنده العسكر⁽⁵⁾.

(1) النويري، نهاية الأرب، ج 29، ص 473.

(2) النويري، نهاية الأرب، ج 29، ص 473.

(3) ذكر ابن أبيك الدواداري أن عدد الرسل الذين أرسلهم هولاكو كانوا نيفاً وأربعين نفرًا، وفي ذلك مبالغة واضحة. كنز الدرر، ج 8، ص 48.

(4) بيارس المنصوري، زبدة الفكرة، ص 50؛ المقرئ، السلوك، ج 1، ص 429.

(5) السلوك، ج 1، ص 429.

وفي الصالحية اجتمع السلطان قطز بأمرائه وحثهم على استكمال المسير لملاقاة العدو، فأبوا معظمهم وطلبوا البقاء بها والملاقاة بها، فهب فيهم صائحًا: "يا أمراء المسلمين! لكم زمان تأكلون أموال بيت المال وأنتم للغزاة كارهون، وأنا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبني ومن لم يختَر ذلك يرجع إلى بيته فإن الله مطلع عليه وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين" فتكلم الأمراء الذين تخيرهم وحلفهم في موافقته على المسير، فلم يسع البقية إلا الموافقة، وانفض الجمع⁽¹⁾.

فلما كان في الليل ركب السلطان وحرك كوساته⁽²⁾ وقال: "أنا ألقى التتار بنفسي" فلما رأى الأمراء مسير السلطان ساروا على كره، وأمر الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري أن يتقدم في عسكر ليعرف أخبار التتر، فسار بيبرس إلى غزة⁽³⁾، وكان كتبغا قائد جيوش التتار قد أقام قوة من التتار تحت قيادة بيدرا، وقد أرسل إلى كتبغا الذي كان عندئذ في بعلبك يعلمه بوصول مقدمة الجيش المملوكي ويطلب منه النجدة، لكن كتبغا رد عليه قائلاً "قف مكانك وانتظر" وأمره بالاحتفاظ بغزة وعدم التخلي عنها لحين وصول الإمدادات إليه، على أن المماليك فوتوا على التتار غرضهم وبادروهم بالهجوم وهزموهم واحتلوا غزة، وطاردوا بيدرا بما بقي من الحامية التي معه حتى نهر العاصي⁽⁴⁾.

ثم نزل السلطان قطز بالعساكر إلى غزة وأقام بها يومًا ثم رحل من طريق الساحل على مدينة عكا، وكان قد استأذن حكومتها الصليبية في السماح للجيش بعبور الأراضي الصليبية لمحاربة التتار فوافق الصليبيون على ذلك الطلب⁽⁵⁾، بل إنهم في عكا خرجوا إليه بالتقدم والهدايا وعرضوا أن يسيروا معه نجدة فشكرهم وأخلع عليهم واستحلفهم أن يكونوا لاه ولا عليه⁽⁶⁾.

(1) السلوك، ج 1، ص 429.

(2) الكوسات هي من رسوم الملك وآلاته وهي عبارة عن صنوجات من نحاس شبه الترس الصغير يدق بأحدهما على الآخر بإيقاع مخصوص، ومع ذلك طبول وشبابة يدق بها مرتين في القلعة في كل ليلة، ويدار بها في جوانبها مرة العشاء الآخرة، ومرة قبل التسيح على الموادن، وتسمى الدورة بذلك في القلعة، وكذلك إذا كان السلطان في السفر تدور حول خامه.

الفلقشندي، صبح الأعشى، ج 4، ص 9.

(3) المقرئزي، السلوك، ج 1، ص 429-430.

(4) الهمذاني، جامع التواريخ، ج 1، ص 313.

(5) سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، ج 2، ص 1135-1136.

(6) المقرئزي، السلوك، ج 1، ص 430.

واجتمع قطز بالأمراء وحضهم على قتال التتار وذكرهم بما وقع منهم بأهل الأقاليم من القتل والسبي والحريق، وخوفهم وقوع مثل ذلك، وحثهم على استنقاذ الشام منهم ونصرة الإسلام والمسلمين، وحذرهم عقوبة الله، فضجوا بالبكاء وتحالفوا على الاجتهاد في قتال التتار ودفعهم عن البلاد⁽¹⁾.

ثم أمر أن يسير الأمير ركن الدين بيبرس بقطعة من العسكر لمقابلة طليعة جيش التتار، فسار وقابلهم وكتب إليه يعلمه بذلك، وأخذ في مناوشتهم فتارة يقدم وتارة يحجم إلى أن وافاه السلطان على عين جالوت من أرض كنعان (فلسطين) بالقرب من بيسان مدينة غور الشام⁽²⁾.

أما عن الجانب التتري وصل قائد جيوشهم كتبغا ليقود المعركة⁽³⁾ وكأنه بحر من اللهب بسبب الغيرة والغضب⁽⁴⁾ "من طليعة جيشه الذي انهزم من أمام بيبرس.

والتقوا واقتتلوا في يوم الجمعة 25 رمضان 658هـ / 3 سبتمبر 1260م بعد طلوع الشمس، وقد امتلأ الوادي وكثر صياح أهل القرى من الفلاحين، وتتابع ضرب كوسات السلطان والأمراء، فتحيز التتر إلى الجبل، وثبت الملك المظفر أحسن ثبات، قال النويري: "حكى بعض من حضر هذه الواقعة قال: كنت خلف السلطان الملك المظفر لما التحم القتال ووقعت الصدمة الأولى، فاضطرب جناح عسكر السلطان وتتعتع طرف منه، فلما رأى الملك المظفر ذلك رمى خوذته عن رأسه وصاح: وا إسلاماه! وحمل، فأعطاه الله النصر وكانت الدائرة على التتار وأخذهم السيف والإسار، وقتل كتبغا نوبين فيمن قتل، وانهزم من سلم من

(1) السلوك، ج 1، ص 430.

(2) النويري، نهاية الأرب، ج 29، ص 474؛ أبو الفداء، المختصر، ج 3، ص 245؛ المقريزي، السلوك، ج 1، ص 430؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 7، ص 79.

(3) ترك هولاکو حلب وعاد إلى بلاده عندما علم بوفاة أخيه منكوخان خاقان المغول العظيم الذي توفي من شهر شعبان 657هـ/ أغسطس سنة 1259م، مما أثار نزاعاً بين إخوته حول اقتسام إمبراطورية المغول الواسعة، فأسرع هولاکو إلى قراقورم حاضرة التتار في جنوب آسيا تاركاً قيادة جيوشه لقائده كتبغا، وكان لعودة هولاکو بجزء كبير من جيشه أثر كبير في إضعاف قوة التتار بالشام في الوقت الذي أخذ السلطان قطز يعد عدته لمواجهة خطرهم.

سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكي، ص 32.

(4) الهمذاني، جامع التواريخ، ج 1، ص 313.

التتار لا يلوون على شيء، وكان الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري ممن شهد هذه الواقعة وأبلى يومئذ بلاءً حسناً⁽¹⁾.

وقال ابن تغري بردي: "ولوا التتار الأدبار لا يلوون على شيء، واعتصم منهم طائفة بالتل المجاور لمكان الواقعة، فأحدثت بهم العساكر وصابروهم على القتال حتى أفنوهم قتلاً، ونجا من نجا، وتبعهم الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري في جماعة من الشجعان إلى أطراف البلاد، واستوفى أهل البلاد والضياغ من التتار آثارهم، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة حتى إنه لم يسلم منهم إلا القليل جداً"⁽²⁾.

بينما قال المقرئ: "ومر العسكر في أثر التتر إلى قرب بيسان، فرجع التتر وصافوا مصافاً ثانياً أعظم من الأول، فهزمهم الله وقتل أكابرهم وعدة منهم. وكان قد تزلزل السلمون زلزالاً شديداً، فصرخ السلطان صرخة عظيمة سمعه معظم العسكر وهو يقول: "وا إسلاماه" ثلاث مرات، "يا الله انصر عبدك قطز على التتار". فلما أنكر التتار الكسرة الثانية نزل السلطان عن فرسه ومَرَّ وجهه على الأرض وقبلها وصلى ركعتين، فأقبل العسكر وقد امتلأت أيديهم بالمغانم"⁽³⁾.

وكان ممن أسر من التتار في وقعة عين جالوت "كتبغا المنصوري" وهو يومئذ شاب، وهو الذي ملك الديار المصرية بعد ذلك في سنة 694هـ / 1295م ولقب بالعدل⁽⁴⁾.

(1) نهاية الأرب، ج 29، ص 474؛ السلوك، ج 1، ص 430-431؛ ابن أبيك، كنز الدرر، ج 8، ص 49-50؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 7، ص 79؛ بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة، ص 51.

(2) النجوم الزاهرة، ج 7، ص 79-80.

(3) السلوك، ج 1، ص 431.

(4) النويري، نهاية الأرب، ج 29، ص 475.

*ومن الطرائف التي أوردها المؤرخون نقلاً عن المؤرخ شمس الدين الجزري عن كتبغا "أن هولاء لما استولى على حلب وملك الشام أجمع وعزم على تجريد العساكر إلى الديار المصرية أحضر نصير الدين الطوسي العالم الفلكي الكبير الذي كان له مكانة مرموقة عند هولاء وقال له: تكتب أساء مقدمي عساكر وتنظر أيهم يملك مصر ويجلس على تحت السلطنة بها، فكتب أساءهم وحسب ودقق النظر فما ظهر له أنه يملك الديار المصرية إلا كتبغا، فذكر ذلك لهؤلاء".

النويري، نهاية الأرب، ج 31، ص 284؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 8، ص 55-56.

**ولكن ينقض هذه الرواية أن كتبغا كان يومئذ صغيراً في السن ولم يكن من المقدمين.

وقد عبر قاسم عبده قاسم بعبارة بليغة عن نتيجة هذه المعركة فقال: "وكانت معركة عين جالوت التي جرت يوم 25 رمضان 658هـ / 3 سبتمبر 1260م واحدة من المعارك الفاصلة في تاريخ المنطقة العربية بأسرها من ناحية، كما كانت بمثابة تأكيد الوجود العسكري والسياسي لدولة سلاطين المماليك من ناحية أخرى، وإذا كانت معركة المنصورة قبل عشر سنوات بمثابة صرخة الميلاد التي أعلنت عن قيام دولة سلاطين المماليك، فإن معركة عين جالوت كانت شهادة الميلاد الرسمية لهذه الدولة⁽¹⁾".

ومما يجدر ذكره هنا أن ابن أبيك الدواداري روى لنا رواية لمملوك حضر هذه المعركة، وهذا المملوك هو صارم الدين أزيك بن عبد الله الأشرفي الذي كان أسيرًا لدى المغول عندما غزا هولاء بلاد الشام، ثم قبل الخدمة في صفوف جيش المغول وحارب ضمن صفوف هذا الجيش في معركة عين جالوت حيث قال: "... ولما قدمت الشام وجدت التتار مجتمعين على نهر الأردن وقد خرجوا قاصدين الديار المصرية، وقد خرج المسلمون للقائهم، فلما علمت أن التتار لا بد لهم من الديار المصرية بعثت غلامًا لي في صفة جاسوس وأمرته أن يجتمع بالملك المظفر قطز والأمير بيبرس البندقداري وبلبان الرشيد وسنقر الرومي، ويعرفهم أن التتار لا شيء فلا تخافوا منهم، وأن تكون ميسرة المسلمين قوية بالخيول والرجال، وعرفهم أن التتار في عسكر قليل، وأوصيته أن يراعي المسلمين أن يكون الملتقى عند طلوع الشمس، فلما وصل غلامي إلى عسكر المسلمين وجدهم خائفين من التتار خوفًا عظيمًا، فاجتمع ببعض الأمراء الذين عرفته بهم وعرفهم ما أوصيتهم به، وكنت قلت في كلامي: قل للأمراء لا تخافوا، ها أنا وأصحابي والملك الأشرف نهزم بين أيديكم، والله وكذلك كان، فلما سمع الأمراء كلام غلامي قال بعضهم لبعض: لا يكون هذا معمولة على المسلمين. فلما كان ملتقى الجميع على عين جالوت طلعت الشمس علينا وظلت عساكر الاسلام، وكان أول سنجق سبق أحمر وأبيض، وكانوا لابسين العدد المليحة، وأشرفت الشمس على تلك العدد، فطلبني كتبغا وقد جهت هو التتار الذين معه لكثرة تلك العساكر وحسن ما عليهم وجاهم

(1) عصر سلاطين المماليك، ص 65.

وهم ينحدرون من الجبل، وقال لي: يا صارم هذا رنك (شعار) من؟ قلت: بلبان الرشيدي، ثم تتابعت الأطلاب أولاً فأولاً وانحدروا من سفح الجبل، ودقت الكوسات والطبلخانات، وامتلاً الوادي والبر من العياط، وجاءت الفلاحين وأهل القرى والبلدان من كل جانب، وكنت غرّاً لا أعرف رنوك المسلمين، فصار كتبغا يسألني: هذا رنك من؟ فصرت أي شيء على لساني قلته، ثم إن التتار انحازوا إلى الجبل، وفتح الله ونصر هذه الملة المحمدية بالمماليك الترك البحرية، ولم يسلم من التتر من يرد الخبر إلى هلاوون، ولكن قتل الجميع، ولم يرد خبرهم إلا من كان مقيماً بدمشق أو حلب⁽¹⁾. وأنا أعتقد بصدق هذه الرواية التي تتفق مع رد الملك الأشرف موسى لرسول أيك.

ومن الروايات المتعلقة بهذه المعركة والتي اعتدنا قراءتها عن المؤرخ ابن أيبك الدواداري والتي تتعلق بجده وأبيه، نقل فيما يزعم عن جده لأمه بلجك قال: "لم نزل معتقلين بالقلعة إلى أن أخرجنا الملك المظفر عند خروجه إلى التتار، فكنت في هذه الغزاة المباركة، وكان قد قفز من التتار إلى السلطان شاباً من المغل، فقربه السلطان، وأنعم عليه وجعله سلاح داراً، فلما كان يوم المصاف والتحم القتال، ضرب ذلك الشاب السلطان بسهم، فلن يخطئ الجواد لسعادة الاسلام ونصرة أمة النبي عليه السلام، فوقع السلطان إلى الأرض، وقتل ذلك الشاب، وعاد السلطان راجلاً والناس قد اشتغلوا بقتل ذلك الملعون الذي أراد هلاك السلطان. قال: فنزل فخر الدين ماما عن جواده وقدمه للسلطان فامتنع عن الركوب، فقال له الأمير فخر الدين: ياخوند اركب فما هذا وقت امتناع، فقال السلطان: تقتل يا فخر الدين. فقال: إذا قتلت أنا كنت واحد من المسلمين وكان عوضي كثير، وإذا قتلت أنت في هذا الوقت فمالك عوض وقتل المسلمين كلهم.

فركب ثم التقت الجنائب والوشاقية⁽²⁾ فركب فخر الدين من جنائب السلطان. فلما انكسر التتار قال للسلطان بعض خواصه عن امتناعه عن الركوب في ذلك الوقت: ياخوند لو صدقك -والعياذ بالله- في ذلك الوقت الذي أنت فيه راجل بعض المغل كنت رحت

(1) كتر الدرر، ج8، ص 53-54.

(2) الجنائب هي الخيول السلطانية، والوشاقية هم السياس.

وراح الاسلام لرواحك. فقال: أما أنا فكنت أروح الجنة، وأما الإسلام فما كان الله ليضيعه، فقد مات السلطان الملك الصالح رحمه الله وقتل ابنه المعظم والأمير فخر الدين بن الشيخ مقدم العسكر وبعد ذا نصر الله الاسلام بغير ملك بعد اليأس⁽¹⁾."

ولما تمت الهزيمة على التتار جاء الملك السعيد ابن الملك العزيز إلى السلطان الملك المظفر مستأمنًا، وكان شهد الواقعة مع التتار منحازًا لهم محاربًا في صفوفهم، فترجل عن فرسه وتقدم إلى السلطان ليقبل يده، فضربه برجله على فمه فأدماه، وجاء أحد سلاح دارية السلطان فضرب عنقه، وفعل ذلك به مؤاخذه له على جوابه الذي سبق ذكره لرسول السلطان والخيانة وفسقه حسبما روي النويري وأبو الفدا⁽²⁾، أما يبيرس الدوادار فقال: "وأحضر إلى المظفر مستأمنًا فقال له: كان هذا يكون لو حضرت قبل الواقعة وأما الآن فلا، وأمر به فقتل صبرًا⁽³⁾".

أما الملك الأشرف موسى صاحب حمص والذي سبق أن أحسن استقبال رسول الملك المظفر له ووعدته بمفارقة التتار في المعركة، فقد كان صحبة التتار في المعركة، وبالفعل فارقهم بمن معه مما أثر في معنوياتهم، وطلب الأمان من المظفر قطز فأمنه وأكرمه وأقره على ما بيده وهو حمص ومضافاتها⁽⁴⁾.

كما أحسن المظفر قطز كذلك إلى الملك المنصور صاحب حمص وأقره على حمص وعلى بارين وأعاد إليه المعرة⁽⁵⁾.

وورد الخبر بانهزام التتار إلى دمشق ليلة الأحد سابع عشرين رمضان المذكور، وحملت رأس كتبغا مقدم التتار إلى القاهرة، ففر الأمير زين الدين الحافظي أحد عملائهم كما فر نواب التتار من دمشق وتبعهم أصحابهم، وكانت مدة استيلاء التتار على دمشق سبعة أشهر وعشرة أيام⁽⁶⁾.

وفي يوم الأحد المذكور نزل السلطان على طبرية وكتب إلى دمشق وبشر الناس بفتح الله له وخذلانه التتار، وهو أول كتاب ورد منه إلى دمشق، فلما ورد الكتاب سر الناس به سرورًا

(1) ابن أبيك، كنز الدرر، ج 8، ص 50؛ المقرئ، السلوك، ج 1، ص 431.

(2) النويري، نهاية الأرب، ج 29، ص 475؛ أبو الفدا، المختصر، ج 3، ص 245.

(3) زبدة الفكرة، ص 51.

(4) أبو الفدا، المختصر، ج 3، ص 245.

(5) نفسه؛ المقرئ، السلوك، ج 1، ص 433.

(6) السلوك، ج 1، ص 432.

كثيراً⁽¹⁾، وبادروا إلى دور النصارى فنهبوا وأخربوها ما قدروا على تخريبه انتقاماً منهم لما فعلوه أيام احتلال التتار لدمشق، فقد كان النصارى بدمشق في أيام التتار قد استطالوا على المسلمين ومدوا أيديهم وبسطوا ألسنتهم فيهم، وخربوا مساجد ومآذن كانت بجوار كنائسهم وأعلنوا بضرب الناقوس وركبوا الصليب وشرّبوا الخمر في الطرقات ورشوه على المسلمين، فلما اتصل خبر النصر بالمسلمين ثار جماعة من العوام وأخربوا كنيسة مريم وكانت كنيسة عظيمة في جانب دمشق الذي فتحه خالد بن الوليد بالسيف، وأقاموا كذلك إلى أن وصل الأمير جمال الدين أقبش المحمدي بكتاب السلطان الملك المظفر يوم الثلاثاء تاسع عشرينه ودخل دمشق ونزل دار السعادة، وسكن الناس وطمئنتهم⁽²⁾.

وفي يوم الأربعاء آخر شهر رمضان وصل الملك المظفر بعساكره إلى ظاهر دمشق بالجمسورة وخيم بها، وعيد عيد الفطر، ثم دخل إلى دمشق في ثاني شوال ونزل بقلعة دمشق وملك البلاد⁽³⁾. وفي يوم دخوله دمشق أمر بشنق جماعة من المتسبين إلى التتر فشنقوا وكان من جملتهم حسين الكردي طبردار⁽⁴⁾ الملك الناصر يوسف، وهو الذي أوقع الملك الناصر في أيدي التتر، وفي هذه النصره وقدم قطز إلى الشام يقول بعض الشعراء:

هلك الكفر في الشام جميعاً	واستجد الإسلام بعد دحوضه
بالمليك المظفر الملك الأر	وع سيف الإسلام عند نهوضه
ملك جاءنا بعزم وحزم	فاعتززنا بسمره وبيوضه
أوجب الله شكر ذاك علينا	دائماً مثل واجبات فروضه ⁽⁵⁾

وفي نصره الملك المظفر هذا يقول الشيخ شهاب الدين أبو شامة:

غلب التتار على البلاد فجاءهم من مصر تركي يجود بنفسه

(1) السلوك، ج 1، ص 432.

(2) أبو الفداء، المختصر، ج 3، ص 244-245؛ النويري، نهاية الأرب، ج 29، ص 432؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 7، ص 80-81؛ المقرئ، السلوك، ج 1، ص 432؛ ابن أبيك الدواداري، كنز الدرر، ج 8، ص 52-53.

(3) نهاية الأرب، ج 29، ص 476؛ السلوك، ج 1، ص 432.

(4) الطبردار معناها ممسك الطبر والطبر بمعنى الفأس، وكان مهمته أن يحمل الطبر حول السلطان عند ركوبه في المواكب وغيرها لحراسته. القلقشندي، صبح الأعشى، ج 4، ص 22؛ ج 5، ص 458، 462.

(5) المختصر، ج 3، ص 246؛ ابن أبيك، كنز الدرر، ج 8، ص 51؛ بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة، ص 52.

بالشام أهلكتهم وبدد شملهم ولكل شيء آفة من جنسه⁽¹⁾

وقال جمال الدين ابن مصعب:

إن يوم الحمراء يوم عجيب فيه ولى جيش الطغاة البغاة

دار كأس المنون لما مزجنا عين جالوت بالدماء للسقاة

يا لها جمعة غدا المغل فيها سُجِّدًا للسيوف لا للصلاة⁽²⁾

واستولى الملك المظفر على سائر بلاد الشام كلها من الفرات إلى حد مصر⁽³⁾، وأقطع الأمراء الصالحية والمعزية وأصحابه اقطاعات الشام، ورتب النواب في الممالك الشامية، فكان أول من ملك البلاد الشامية واستتاب بها من ملوك الترك⁽⁴⁾. ففوض نيابة دمشق إلى الأمير علم الدين سنجر الحلبي الصالحى وجعل معه الأمير فخر الدين أبا الهيضاء عيسى بن خشتريين الأزكشي الكردي، وأقر الملك الأشرف مظفر الدين موسى على مملكته بحمص والرحبة وتدمر، وبعث الملك المظفر بن الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب سنجار إلى حلب نائباً بها ونعته بالملك السعيد حتى لا يشاركه النعت، وأقر الملك المنصور بن الملك المظفر على مملكته بحماة وبارين وأعاد عليه المعرة وكانت بيد الحلبيين من سنة 635هـ / 1238م وأخذ سلمية منه وأعطاها الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا بن مانع أمير العرب، ورتب الأمير شمس الدين أقوش البرلي أميراً بالساحل وغزة ومعه عدة من العززية، وكان قد فارق الناصر يوسف وسار إلى القاهرة فأكرمه المظفر قطز وخرج معه فشهد وقعة عين جالوت⁽⁵⁾.

وثار عدة من الأوشاقية⁽⁶⁾ ممالك السلطان بالنصارى ونهبوا دورهم ومعهم عدة من عوام دمشق، فشنع منهم نحو ثلاثين نفساً، وأمر أن يقرر على نصارى دمشق مائة وخمسون

(1) ابن أبيك الدوادراي، كنز الدرر، ج 8، ص 51؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 7، ص 82.

(2) ابن أبيك الدوادراي، كنز الدرر، ج 8، ص 51.

(3) المقرئزي، السلوك، ج 1، ص 433؛ النويري، نهاية الأرب، ج 29، ص 476؛ ابن أبيك، كنز الدرر، ج 8، ص 51.

(4) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 7، ص 83.

(5) النويري، نهاية الأرب، ج 29، ص 476-477؛ المقرئزي، السلوك، ج 1، ص 433.

(6) الأوشاقية أو الأوجاقية هم الذين يتولون رعاية الخيل للتسيير والرياضة. الفلقشندي، صبح الأعشى، ج 5، ص 454.

ألف درهم، فجمعوها وحملت إلى السلطان بسفارة الأمير فارس الدين أقطاي المستعرب أتابك العسكر⁽¹⁾.

ثم قدم الخبر على السلطان بدمشق في شوال بأن المنهزمين من رجال التتار ونسائهم لحقهم الطلب من الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري، فإن بيبرس كان تقدم قبل السلطان إلى دمشق يتتبع آثار التتار إلى قرب حلب، فلما قرب منهم بيبرس سببوا ما كان في أيديهم من أسارى المسلمين، ورموا أولادهم فتخطفهم الناس، وقاسوا من البلاء ما يستحقونه⁽²⁾.

وعلق أ.د. قاسم على مكاسب معركة عين جالوت بقوله: "وهكذا توطدت أركان دولة سلاطين المماليك بإعتبارها القوة الإقليمية الكبرى في المنطقة العربية، كما تم توحيد مصر والشام تحت حكمها في خضم الصراع ضد المغول؛ ذلك أن انتصار الجيش المملوكي في عين جالوت أنهى المقاومة الأيوبية لحكم السلاطين المماليك إلى الأبد، كذلك فإن السلطان الظاهر بيبرس البندقداري أعاد الخلافة العباسية بالقاهرة مما جعل هذه المدينة العاصمة السياسية والعسكرية والثقافية للعالم العربي على ما يزيد على قرنين ونصف من الزمان⁽³⁾".

استشهاد السلطان الملك المظفر قطز

لما رتب قطز أحوال النواب والولاة والشامين ببلاد الشام خرج من دمشق يوم الثلاثاء 26 شوال 658هـ / 5 أكتوبر 1260م يريد مصر بعد ما كان قد عزم على المسير إلى حلب، فثناه عن ذلك ما بلغه من تنكر الأمير ركن الدين بيبرس وجماعة من الأمراء البحرية عليه وأنهم يضمرون له شراً، فقد قال القاضي عز الدين ابن شداد في تاريخه "أن الملك قطز لما ملك دمشق كان عازماً على التوجه إلى حلب ليكشف أحوالها ويزيح أعدائها من خراب التتار، فوشي إليه واشي أن الأمير ركن الدين البندقداري مع جماعة من الأمراء البحرية متكرين له ومتغيرين عليه، فصرف وجهه إلى ناحية الديار المصرية وهو أيضاً مضمراً لهم الشر، وربما أسر ذلك لبعض خواصه، فبلغ ذلك الأمير ركن الدين البندقداري فخرجوا من دمشق وكل واحد منهما متحزب من صاحبه⁽⁴⁾".

(1) السلوك، ج 1، ص 433.

(2) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج 7، ص 82.

(3) عصر سلاطين المماليك، ص 72.

(4) ابن أبيك، كنز الدرر، ج 8، ص 60.

وقد ذكر لمؤرخون ثلاث روايات عن سبب تأمر بيبرس والمماليك البحرية لقتل السلطان

قطر، فأول هذه الروايات هي رواية بيبرس الدوادار - وهو أقربهم إلى الحدث، وبحكم ما وصله من ومكانه في الدولة بعد ذلك تتيح له التعرف على كثير من الأسرار تقول: " .. وذلك أنه (يقصد قطر) رحل من دمشق عائداً إلى الديار المصرية وفي نفوس البحرية منه ومن أستاذه ما فيها لقتلها الفارس أقطاي واستبادهما بالملك، والجائهم إلى الهرب والهجاج، والتنقل في الفجاج، إلى غير ذلك من أنواع الهوان التي قاسوها، والمشقات التي لبسوها، وإنما انحازوا إليه لما تعذر عليهم المقام بالشام، والتناصر على صيانة الإسلام، لا لأنهم أخلصوا له الولاء، أو رضوا له الاستيلاء.

وقد ينبت المرعى على دمن الثرى وتبقى حزازات النفوس كما هي⁽¹⁾

وهذا السبب هو الأكثر منطقية من بين روايات المؤرخين.

أما الرواية الثانية فأوردها المقريزي وابن تغري بردي، وغالباً ما نقلوها عن ابن واصل فتقول أن سبب ذلك أن الأمير ركن الدين بيبرس طلب من السلطان المظفر أن يوليه نيابة حلب وأعمالها فوعده بذلك ثم تراجع في وعده وولاهها لعلاء الدين علي بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، فكان ذلك سبب الوحشة بين بيبرس وبين الملك المظفر⁽²⁾.

أما الرواية الثالثة فأوردها ابن أبيك الدواداري الذي يغلب على تاريخه الجانب القصصي والروائي أكثر من الحقائق التاريخية المجردة فتقول: "وحكى لي والدي -رَحِمَهُ اللهُ- عن مخدومه الأمير سيف الدين بلبان الدوادار الرومي قال: إن يوم المصاف هربت جماعة من الأمراء من خشداشية الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري، فلما انتصر الإسلام تنمر عليهم السلطان المظفر ووبخهم وشتهم وتوعدهم، فأضمرؤا له السوء، وحصلت الوحشة منذ ذلك اليوم، ولم تزل الحقايد الضغائن تتراءى في صفحات الوجوه وغمزات العيون، وكل منهم يترقب من صاحبه الفرصة⁽³⁾".

فاحترس كل منهما من الآخر، وصمم بيبرس على الانتقام من قطر، فدبر مؤامرة مع زملائه من زعماء البحرية لقتله في أول فرصة مناسبة، ولمرارة ذكرى تشردهم في البلاد والمحن والشدائد التي تعرضوا لها لقي اقتراح بيبرس بالتخلص من قطر هوى وقبول في نفوسهم.

(1) زبدة الفكرة، ص 53.

(2) السلوك، ج 1، ص 434؛ النجوم الزاهرة، ج 7، ص 82، 101.

(3) كنز الدرر، ج 8، ص 60.

وسرعان ما حانت الفرصة عندما وصل ركب السلطان إلى الصالحية بالشرقية في طريقه إلى القاهرة، ذلك أن قطز أظهر رغبته في الصيد، فلما فرغ من رياضته تقدم منه الأمير بيبرس وطلب امرأة من سبى التتار، فأجابه إلى ما طلبه وأنعم عليه بما أراد، وقد تظاهر بيبرس برغبته في تقبيل يد السلطان، وكانت هذه إشارة بينه وبين شركائه المتآمرين، فقبض بيبرس على يد قطز ليمنعه من الحركة في حين انهال عليه بقية أمراء البحرية بسيوفهم ورماحهم وألقوه عن فرسه حتى أجهزوا عليه، وكان ذلك يوم السبت 15 ذي القعدة 658هـ / 23 أكتوبر 1260م، وكانت مدة ملكه سنة واحدة إلا اثنا عشر يوماً⁽¹⁾.

وحكى في كيفية قتله عدة روايات تاريخية من الصعب اثباتها، فقال أبو الفدا: "وصل قطز إلى القصير بطرف الرمل وبينه وبين الصالحية مرحلة، وقد سبق الدهليز والعسكر فيينا بيبرس يسير إذ قامت أرنب بين يديه فساق عليها وساق (بيبرس وانص مملوك نجم الدين الرومي الصالحى والهارونى وعلم الدين صغن أغلى) معه، فلما بعدوا تقدم إليه أنص وشفع عند الملك المظفر قطز في انسان فأجابه إلى ذلك، فأهوى لتقبيل يده وقبض عليها، فحمل عليه بيبرس البندقداري الصالحى حينئذ وضربه بالسيف، واجتمعوا عليه ورموه عن فرسه ثم قتلوه بالنشاب"⁽²⁾.

وتقرب رواية بيبرس الدوادار من رواية أبو الفدا وهي تقول: "واتفق أنه - أي قطز - انفرد عن الموكب لتصيد الأرانب، وساق خلف أرنب عرض له وهم يرمقونه، فلما رأوه قد بعد عن الأطلاب ساقوا في أثره ركضاً، وجاءوا يتلوا بعضهم بعضاً، فتقدم إليه أنص الاصفهاني كأنه يشفع عنده في إصلاح حال الركن البندقداري لأنه قام في خدمته مدة ولم تعين له، وخرج إلى الغزاة برمح، وبذل فيها نصحه، فأجاب المظفر إلى سؤاله، ووعد به بإصلاح حاله، فأهوى إلى يده يقبلها فأمسكها، فضبطها ضبطاً شديداً، وعلاه الأمير ركن الدين البندقداري بسيفه، ثم اجتمعوا على من يملك، وأعرضوا ذلك على الأمراء، فاستعف كل منهم واستقال، وأحجم عن الموافقة وساع المقال، فعند ذلك تقدم الأمير فارس الدين أقطاي المستعرب وقال: من هو قتل المظفر بسيفه؟ فقالوا الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري؛ فقال: هو أحق بالملك وأولى، فوافقه الأمراء على ذلك، وأجلسوا المشار إليه"⁽³⁾.

(1) المقرئى، السلوك، ج 1، ص 435؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج 7، ص 83-84؛ أبو الفدا، المختصر، ج 3، ص 247.

(2) المختصر، ج 3، ص 247.

(3) زبدة الفكرة، ص 54.

أما رواية ابن أيبك فهي -كعادته- يغلب عليها تفاصيل كثيرة في الوصف وفي الحوارات والفن القصصي فتقول: "وذلك لما وصل السلطان المرحوم الشهيد سيف الدنيا والدين قطز إلى منزلة القصير ثار قدامه أرنب فساق عليه وأرماءه، وتبعوه الأمراء المذكورون، وسبق الأمير عز الدين أنس (أنص) إلى الأرنب وحصلها، فأعجب السلطان منه ذلك، كون هذا الأمير سبق إلى صيده، وترجل عن فرسه وحصله، فقال له: أسأل ما تريد يايبك إذا دخلنا مصر. فقال: ياخوند، الجارية التي أخذها السلطان من سبى التتار، فقال: نعم وعلى جهازها. فباس الأرض وتقدم ليقبل يد السلطان فمسك قائم سيفه مع يده، وكانت هذه هي الإشارة بينهم، فبادره بكتوت الجولندار وضربه على عاتقه حلّه، ثم ثنى عليه أنص فأرماءه عن فرسه، ثم رماه بهادر المعزي بسهم فقتله، وعجل الله بروحه إلى عليين، وعوضه عن ملكه بملك جوازه الحور العين، وذلك يوم السبت سادس عشر ذي القعدة، وقيل إن أول من ضربه كان الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري وهو الصحيح والله أعلم. ثم توجهوا إلى الدهليز واجتمعوا، فتقرر الأمر للأمير ركن الدين بيبرس البندقداري بعد محاورات كثيرة، فكان أول من تقدم وبايعه الأمير فارس الدين أتابك، ثم الأمراء على طبقاتهم، ولقب الملك الظاهر⁽¹⁾".

أما رواية النويري فتقول "وحكى في كيفية قتله أنه كان قد تغير خاطره على الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري، فلما تقدم الأمراء إليه سأله الأمير بدر الدين أنص الرضا عن الأمير ركن الدين، فقال: قد رضيت عنه، فترجل الأمير ركن الدين ليقبل يده، فلما تناوها قبض عليها وجذبه عن سرجه، وبدره أولئك الأمراء بالضرب فقتلوه - رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى -. ويقال: إن الأمراء الذين اتفقوا على قتله: الأمير سيف الدين بلبان الرشيد والأمير سيف الدين بهادر المعزي خوشداهش والأمير بدر الدين بكتوت الجوكان دار المعزي والأمير سيف الدين بيغان الركني والأمير سيف الدين بلبان الهاروني⁽²⁾" إلى جانب بيبرس وأنص.

وقال النويري أيضًا: "وكان الملك الظاهر يدعي أنه هو الذي قتله بيده، وقال جماعة: إنه لم يباشر قتله وإنما كان يدعي ذلك افتخارًا، وقد نُقِلَ أن الملك الظاهر لما قبض على يده ضربه الأمير بكتوت الجوكان دار على عاتقه بالسيف فأبانه، وألقاه الأمير بدر الدين أنص عن

(1) كتر الدرر، ج 8، ص 61-62.

(2) نهاية الأرب، ج 29، ص 478.

موسوعة سلاطين المماليك تاريخهم، آثارهم، أوقافهم (1)..... السلاطين الثلاثة الأول لدولة المماليك

فرسه، ثم رماه الأمير سيف الدين بهادر المعزي بسهم أتى على روحه - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - (1).
وقد ذكر المقرئ في مثل هذه الفقرة (2).

ودفن قطز عندما قتل القصير التي تقع على بعد مرحلة من الصالحية، ثم حمل بعد ذلك إلى القاهرة فدفن بالقرب من زاوية الشيخ تقي الدين رجب الشيرازي، قبل أن تعمّر، وهي التي تقع أسفل القلعة بسكة المحجر، ثم نقله الحاج قطز الظاهري إلى القرافة ودفن قريباً من زاوية ابن عبود (3).

وهكذا حل القاتل محل القاتل ببساطة شديدة، وانتقلت السلطة إلى القاتل قبل أن تجف دماء المقتول دون أن يرى كبار أمراء المماليك غضاضة في ذلك، بل أن أتاك العسكر سأل عن القاتل وحينما علم أنه ببيرس قال له: ياخوند اجلس أنت في مرتبة السلطنة، وهكذا ترسخ مبدأ "الحكم لمن غلب"، وترتب على هذه المأساة تكريس القوة والدماء سبيلاً إلى السلطة والعرش، وكانت تلك هي "سنة المماليك في دولتهم" ولم يحدث طوال مائتي وسبعين عاماً هي عمر دولة سلاطين المماليك أن وجدنا لهذه السنة تبديلاً (4).

الروايات والحكايات المتعلقة بقطز

اعتاد المؤرخون نسج روايات شيقة يحشوها بكتبهم التاريخية حتى لا يمل القارئ من سرد التاريخ الجاف، ومن هذه الروايات رواية عن أصل السلطان قطز ذكرها لنا المؤرخ النويري فقال: "حكى أنه كان من أولاد الملوك الخوارزمية، وأنه محمود بن ممدود، ابن اخت السلطان خوارزم شاه، وإنما أبيع لما استولى التتار على البلاد وملكوا ملك الخوارزمية وقتلوا الرجال وأسروا النساء والصبيان وكان هو ممن أسر وأبيع، وقد كان هو يصرح بذلك - فيما حكى عنه - ويستكتم من يحكيه له (5)".

وقد نقل الشيخ شمس الدين الجزري في تاريخه "حوادث الزمان وأنبأه" أن والده أخبره أن الحاج علي الفراش أخبره قال: "لما كان قطز في رقّ ابن الزعيم بدمشق - وكان سكنه

(1) نفسه.

(2) السلوك، ج 1، ص 435.

(3) السلوك، ج 1، ص 435.

(4) قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ص 81.

(5) نهاية الأرب، ج 29، ص 479.

بالقصاصين - غضب عليه في بعض الأيام فلطم وجهه ولعنه ولعن والديه وجده. قال: فبكى قطز بكاءً شديداً وجعل ينتحب طول نهاره وامتنع عن الأكل، وركب استأذه بعد صلاة الظهر إلى الخدمة فقال لي: استرضه وأطعمه واعتبه على بكائه. قال الفراش: فجئت إليه وجعلت ألومه على بكائه من لكمة واحدة، فكيف لو ضربت ألف عصاة أو دبوس أو جُرحت بسيف؟! فقال: والله ما بكائي وغيظي من أجل لكمة وإنما كونه لعن أبي وأمي وجدتي. فقلت له: ومن أبوك من وجدك وأمك؟ فقال: والله أبي خير من أبيه وأمي خير من أمه وجدتي خير من جده. فقلت له: أنت مملوك تركي كافر ابن كافر. فقال ما أنا إلا مسلم ابن مسلم، أنا محمود بن ممدود، ابن أخت خوارزم شاه، من أولاد الملوك. قال: فسكت عنه وطاييته. وتقلبت به الأحوال إلى أن ملك الديار المصرية والشام، ولما ملك دمشق أحسن إلى الحاج علي الفراش المذكور وأعطاه خمسمائة دينار، ورتب له راتباً جيداً⁽¹⁾.

ومن الحكايات الأخرى قال الجزري أيضاً: "حكى لي الحاج أبو بكر ابن الدريهم الأسعري والحاج زكي الدين إبراهيم الجزري المعروف بالجيلي استاذ الفارس أقطاي قالا: كنا عند الأمير سيف الدين قطز في أول دولة استأذه الملك المعز، وقد حضر عنده منجم ورد من بلاد المغرب وهو موصوف بالحدق في علم الرمل والفلك، فأمر قطز أكثر من عنده من حاشيته بالانصراف فانصرفوا، وهممنا بالقيام فأمرنا بالجلوس فجلسنا، وما ترك عنده إلا من يثق به من خواصه، وقال للمنجم: اضرب الرمل، ففعل وحدثه بأشياء كثيرة مما كان في نفسه. وكان آخر ما قال له: اضرب وانظر من يملك بعد أستاذي ومن يكسر التتار؟ فضرب وحسب حساباً طويلاً، وبقي يفكر ويعد أصابعه وقال: قد طلع معي خمس حروف بغير نقط وأبوه أيضاً خمس حروف بغير نقط وأنت اسمك ثلاثة حروف وابن السلطان كذلك. فقال له: لم لا تقول: محمود بن ممدود؟ قال المنجم: لا يقع غير هذا الاسم. فقال قطز: أنا محمود بن ممدود وأنا أكسر التتار وأخذ بثار خالي خوارزم شاه، ثم استكتمتنا هذا الأمر، وأنعم على المنجم بثلاثمائة درهم وصرفه⁽²⁾".

(1) نهاية الأرب، ج 29، ص 479-480؛ ابن أبيك، كنز الدرر، ج 8، ص 39-40؛ العيني، عقد الجمان، ج 1، ص 255.

(2) نهاية الأرب، ج 29، ص 480-481؛ ابن أبيك، كنز الدرر، ج 8، ص 40-41.

وقال النويري أيضًا: "وحكى عن المولى تاج الدين أحمد بن الاثير -رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى- ما

معناه: أن الملك صلاح الدين يوسف صاحب الشام - رحمه الله تعالى - لما كان على برزة⁽¹⁾ في أواخر سنة 657هـ / 1259م وصل إليه قُصَادٌ من الديار المصرية بكتب تتضمن أن قطز قد تسلطن وملك الديار المصرية، وقبض على الملك المنصور بن أستاذة الملك المعز. قال القاضي تاج الدين: فطلبني السلطان -رَحْمَةُ اللَّهِ- فقرأت عليه الكتب. فقال لي: خذ هذه الكتب وتوجه إلى الأمير ناصر الدين القيمري والأمير جمال الدين بن يغمور وأوقف كلا منهما عليها.

قال: فأخذتها وخرجت من عنده، فلما بعدت عن الدهليز لقيني حسام الدين البركة خاني⁽²⁾ فسلم عليّ وقال: جاءكم بريد أو قصاد من الديار المصرية؟ فوريت له⁽³⁾ وقلت: ما عندي علم بشيء من هذا. قال: قطز يتسلطن ويملك الديار المصرية ويكسر التتار. قال القاضي تاج الدين: فعجبت من كلامه وقلت له: إيشن هذا القول؟ من أين لك هذا؟

قال: والله، هذا قطز هو خوشداشي⁽⁴⁾ كنت أنا وإياه عند الهيجايي من أمراء مصر ونحن صبيان، وكان عليه قمل كبير، فكنت أسرح رأسه - على أنني كلما أخذت عنه قملة أخذ منه فلسًا أو صفعة. فلما كان بعض الأيام أخذت عنه قملة كثيرًا وشرعت أصفعه، ثم قلت في غضون ذلك: والله ما اشتهي إلا أن الله يرزقني إمرة خمسين فارسًا، فقال لي: طيب قلبك، أنا أعطيك إمرة خمسين فارسًا، فصفعته وقلت: والك⁽⁵⁾، أنت تعطيني إمرة؟! قال: نعم! فصفعته! فقال لي: والك إيشن يلزم لك إلا إمرة بخمسين فارس، أنا والله، أعطيك. قلت: والك كيف تعطيني؟ قال: أملك الديار المصرية.

قلت: تملك الديار المصرية؟! قال: نعم، رأيت النبي -ﷺ- في المنام وقال لي: أنت تملك الديار المصرية وتكسر التتار، وقول النبي -ﷺ- لا شك فيه، فسكت وكنت أعرف منه الصدق في حديثه وعدم الكذب.

(1) برزة من ضواحي دمشق في غوطتها.

(2) أي المنسوب إلى بركة خان مقدم الخوارزمية.

(3) أي أجبت بتورية.

(4) أي زميلي في النشأة والخدمة عند أستاذنا الذي اشترانا وربانا معًا.

(5) أي ويلك أو ويحك.

وتقلبت به الأحوال وارتفع شأنه إلى أن صار هم المتحكم في الدولة، وما أشك أنه يملك الديار المصرية - مستقبلاً - ويكسر التتار كما أخبره النبي ﷺ في المنام.

قال القاضي تاج الدين: فلما قال لي هذا القول قلت له: والله قد وردت الأخبار أنه تسلطن في الديار المصرية. قال لي: والله هو يكسر التتار. فما مضى إلا مدة يسيرة حتى خرج وكسر التتار. قال المولى تاج الدين - رحمه الله - فرأيت الأمير حسام الدين البركة خاني الحاكبي لي - بعد ذلك - بالديار المصرية بعد كسرة التتار فسلم عليّ وقال لي: تذكر ما قلت في الوقت الفلاني؟ قلت: نعم. قال: والله حالما عاد الملك الناصر من قطيا ودخلت أنا إلى الديار المصرية أعطاني إمرة خمسين كما قال - رحمه الله - لا زايد على ذلك⁽¹⁾.

وقد ذكر هذه الحكاية الشيخ قطب الدين اليونيني في تاريخه "الذيل على مرآة الزمان" وقال أيضاً: "وحكى لي الأمير عز الدين بن أبي الهيجا ما معناه: أن الأمير سيف الدين بلقاق حدثه أن الأمير بدر الدين بكتوت الأتابكي حكى له قال:

كنت أنا والملك المظفر قطز والملك الظاهر ركن الدين بيبرس - رحمهم الله تعالى - في حال الصبا كثيراً ما نكون مجتمعين في ركوبنا وغير ذلك، فاتفق أن رأينا مُنجماً في بعض الطرق بالديار المصرية. فقال له الملك المظفر: أبصر نجمي، فضرب بالرمل وحسب وقال له: أنت تملك هذه البلاد وتكسر التتار!، فشرعنا نهزأ به. ثم قال له الملك الظاهر: فأبصر نجمي، فضرب الرمل وحسب وقال: وأنت تملك الديار المصرية وغيرها، فتزايد استهزاؤنا به! ثم قال لي: لا بد أن يُبصر نجمك. فقلت له: أبصر لي، فضرب وحسب وقال لي: وأنت تحصل لك إمرة بمائة فارس، ويعطيك هذا - وأشار إلى الملك الظاهر، فاتفق أن الأمر وقع كما قال وهذا من عجيب الاتفاق⁽²⁾.

قال الشيخ قطب الدين اليونيني - نفع الله به -:

(1) نهاية الأرب، ج 29، ص 481-483؛ ابن أبيك، كنز الدرر، ج 8، ص 41-42؛ العيني، عقد الجمان، ج 1، ص 255-257.

(2) نهاية الأرب، ج 29، ص 483-484؛ ابن أبيك، كنز الدرر، ج 8، ص 43؛ العيني، عقد الجمان، ج 1، ص 257-258.

"وكان السلطان الملك المظفر بطلاً شجاعاً مقدماً حتى قيل أنه لم يركب الفرس قبله من الترك أفرس ولا أشجع منه، ولم يكن يوصف بشح ولا كرم، بل كان متوسطاً، وهو أول من اجتزأ على التتار وكسرهم بعد خوارزم شاه كسرة عظيمة جبر بها الإسلام⁽¹⁾".

ومن الروايات التي قالها المؤرخ اليوناني أيضاً:

"ومما حكى لي عنه: أنه قُتِلَ في يوم المصاف -أي المعركة- جواده بعين جالوت، ولم يصادف في تلك الساعة أحد من أوشاقيته⁽²⁾ الذين معهم جنائبه⁽³⁾، فبقى راجلاً، ورآه بعض الأمراء الشجعان فترجل عن حصانه وقدمه له يركبه فامتنع وقال له ما معناه: ما كنت لأخذ حصانك في هذا الوقت وأمنع المسلمين الانتفاع بك وأعرضك للقتل وحلف عليه أن يركب فرسه، فامتلأ أمره وركب، ووافاه الأوشاقية بالجناب فركب جنيباً.

فلامه بعض خواصه على ذلك وقال: لو صادفك -والعياذ بالله- بعض المغل وأنت على الأرض راجلاً كنت رحت وراح الإسلام، فقال: أما أنا فكنت أروح إلى الجنة -إن شاء الله تعالى- وأما الإسلام فما كان الله عز وجل ليضيعه، فقد مات الملك الصالح وقتل ولده الملك المعظم والأمير فخر الدين بن الشيخ مقدم العساكر ونصر الله الإسلام بعد اليأس من نصره -يشير إلى نوبة المنصورة⁽⁴⁾.

قال: ولما قدم إلى دمشق بعد الكسرة -أي كسرة التتار- أجرى الناس كافة على ما كانوا عليه إلى آخر الأيام الناصرية في رواتبهم ومقرراتهم وإطاعاتهم ولم يتعرض إلى مال أحد ولا إلى ملكه، ثم توجه بعد تقرير قواعد الشام فرزقه الله الشهادة فقتل مظلوماً رحمه الله تعالى⁽⁵⁾. وأجل ابن تغري بردي صفات قطز فقال: "وكان الملك المظفر سلطاناً بطلاً شجاعاً مقدماً حازماً سيوساً عاقلاً ديناً خيراً صاحب رأي وتدبير، ومعرفة بالحروب والأحكام، وكان شاباً أشقر كبير اللحية، لطيف الذات، حلو الكلام، وبالجملة - فهو أحد من قام بنصرة الاسلام واستنقاذ البلاد الشامية من العدو⁽⁶⁾".

(1) نهاية الأرب، ج 29، ص 484؛ ابن أبيك، كنز الدرر، ج 8، ص 41.

(2) الأوشاقية هم سياس الخيل.

(3) الجنائب هي خيول السلطان.

(4) نهاية الأرب، ج 29، ص 485.

(5) نهاية الأرب، ج 29، ص 486.

(6) المنهل الصافي، ج 9، ص 77.

وخلاصة القول في شخصية السلطان الملك المظفر أنه كان الأنموذج الذي سار على خطاه باقي سلاطين المماليك، فهو يجمع بين الخير والشر والطيبة والشراسة في وقت واحد، وهو مخلص لدولته واستقلالها، بطلاً شهماً مدافعاً عن دينه وأرضه، إلا أن يده انغمست بالدماء، وهكذا كان معظم سلاطين المماليك.

وقد اندثرت المدرسة المعزية التي أنشأها المعز أيبك سنة 654هـ / 1256م وقال عنها ابن دقماق: "المدرسة المعزية عمرها السلطان الملك المعز أيبك التركماني الصالحي النجمي أول ملوك الدولة التركية بعد بني أيوب، وكان متولى عمارتها صاحب برهان الدين السنجاري وهو الخضر بن الحسن إلى أن توفي، فدرس بها الفقيه شمس الدين الجزري ثم عزل، ودرس بها الفقيه نجم الدين أحمد بن الرفعة، ولم يزل إلى أن توفي إلى رحمة الله تعالى فدرس بها الفقيه شمس الدين الجزري المشهور بالخطيب وكان يومئذ خطيب الجامع الطولوني، ولم يزل بها إلى توفي فدرس بها قاضي القضاة جمال الدين الرزعي⁽¹⁾". ثم ذكر ابن دقماق أوقافها فقال: "الحمامين المتجاورين في صف وكالة الملك المشهورين بحمامي السلطان والربع المشهور بربع الطاووس الذي في بعض سفله الآن دار القنود وقاعات دار الوكالة والربع علوها، المتوصل إلى ذلك من الباب الكبير المجاور لباب الحمام المذكور وعلو ظهر المطابخ السلطانية والنصف والربع ثمانية عشر سهماً من الأرض التي الآن أمام سور المدرسة المذكورة القبلي، يفصل بين ذلك وبين المدرسة المذكورة الطريق، وشرط نظرها لمدرستها⁽²⁾". وقال عنها ابن تغري بردي: "وكان للمعز بر ومعروف وعمائر، من ذلك: المدرسة المعزية على النيل بمصر القديمة ووقف عليها أوقافاً، ودهليز المدرسة متسع طويل مفرط، قيل: إن بعض الأكابر دخل إلى هذه المدرسة المذكورة فرآها صغيرة بالنسبة إلى دهليزها، فقال: هذه المدرسة مجاز بلا حقيقة!، وكان مدرستها القاضي برهان الدين الخضر ابن الحسن السنجاري إلى أن مات⁽³⁾".

ولم يذكرها المقرئ في عرضه للمدارس وإنما ذكرها عرضاً عندما تكلم على ساحل النيل بمدينة مصر ووصل إلى موضع الجامع الجديد الذي أنشأه الملك الناصر محمد بن قلاوون

(1) الانتصار، ج 4، ص 92-93.

(2) الانتصار، ج 4، ص 93.

(3) النجوم الزاهرة، ج 7، ص 14.

فقال: "وشرع خواص السلطان في العمارة على شاطئ هذا البحر.. من قبالة الجامع الجديد إلى المدرسة المعزية⁽¹⁾". ثم لما تكلم على المنشأة ووصل إلى جسر الأفرم قال: "إن هذا الجسر في طرف مصر فيما بين المدرسة المعزية وبين رباط الآثار، وكان الجسر مطلقاً على النيل دائماً⁽²⁾".

وقد حقق المرحوم العلامة محمد بك رمزي مكان هذه المدرسة وذكر أن مكانها اليوم جامع عابدي بك أمير اللواء الشريف بمصر الشهير بجامع الشيخ رويش المطل على كورنيش النيل بمصر القديمة، وقد أنشأه سنة 1071هـ / 1660م واشتهر باسم الشيخ رويش لمجاورته لضريحه الكائن بحارة الخوخة بالجهة الشرقية القبليّة من الجامع المذكور⁽³⁾، وهو مسجل برقم 524 في عداد الآثار الإسلامية بمدينة القاهرة.

سلطنة الظاهرة بيبرس

بعد أن قتل الأمراء الملك المظفر قطز عادوا إلى الدهليز السلطاني بالصالحية، وكان الأمير أقطاي المستعرب الأتابك مقيماً به ولم يشترك معهم في تلك المؤامرة، وعندما عرف قتل السلطان قال لهم: من قتله منكم؟ فقال الأمير بيبرس: أنا قتلتها. فقال الأمير أقطاي: اجلس في مرتبة السلطنة مكانه، فجلس، فبايعه أقطاي وحلف له ثم علاء الدين بلبان الرشيدي والأمير بدر الدين بيسري والأمير سيف الدين قلاوون والأمير بيليك الخازندار ثم بقية الأمراء على طبقاتهم⁽⁴⁾.

وعاد بيبرس والأمراء إلى القاهرة ودخلوا قلعة الجبل فتسلمها بيبرس إيداناً بسلطنته ليلة الاثنين 17 ذي القعدة 658هـ / 25 أكتوبر 1260م وتلقب الظاهر بعدما قيل أنه تلقب أولاً بالقاهر، وكانت القاهرة قد زينت لقدوم الملك المظفر قطز والناس في فرح وسرور بالانتصار على التتر، فلما طلع النهار نادى المنادي في الناس: "ترحموا على الملك المظفر وادعوا لسلطانكم الملك الظاهر ركن الدين بيبرس"، فغم الناس ذلك وخافوا من عودة المماليك

(1) الخطط، تحقيق أيمن فؤاد، مج 2، ص 162.

(2) الخطط، مج 2، ص 165.

(3) تعليق محمد رمزي على النجوم الزاهرة، ج 7، ص 14.

(4) أبو الفدا، المختصر، ج 3، ص 348؛ المقريزي، السلوك، ج 1، ص 436.

موسوعة سلاطين المماليك تاريخهم، آثارهم، أوقافهم (1).....السلطين الثلاثة الأول لدولة المماليك

البحرية لسوء أخلاقهم وجورهم، ولكن الظاهر أبطل كل ما أحدثه قطز من ضرائب فسر الناس لذلك⁽¹⁾.

⁽¹⁾ السلوك، ج 1، ص 437.

